قوله:

وَيَسْــــتَحِيلُ [1] ضِـــــدُّ هَـــذِهِ الصِّـــفَاتْ [2] الْعَــــــدَمُ الْـحُــــــدُوثُ ذَا لِلْحَادِثَـــــاتْ

كَـــــذَا الْفَنَـــا وَالاِفْتِقَـــارُ عُــــدَّهْ وَأَنْ يُمَـــــاثَلَ وَنَفْـــــيُ الْوَحْــــــدَهْ

عَجْــــزٌ كَرَاهَــــةٌ وَجَهْـــلٌ وَمَمَـــاتْ وَصَـــــمَمٌ وَبَكَـــمٌ عَمًـــى صُمَـــاتْ

هذا هو القسم الثاني وهو الذي يستحيل وصفه تعالى به، وذلك ثلاثة عشر أيضا كعدد الواجبات؛ لأنّها أضدادها.

ورتّب رحمه الله هذا القسم على الأوّل الواجب: فالعدم ضدّ الوجود، والحدوث ضدّ القدم [3]، والفناء ضدّ البقاء [4] ....

---

(1) (ويستحيل) اختار السكتانيّ جعل السين والتاء لمطاوعة (أفعل)، نحو: أراحه فاستراح، وأحاله فاستحال، أي قَبِل الإحالة، وحينئذ فالمعنى: ويقبل الإحالة والنفي عن الله ضدّ الخ، وفيه إيهام أنّ هذا وصف عرضيّ طارٍ من تأثير الاستحالة الذاتيّة، فالظاهر أنّهما زائدتان، وأنّ الاستحالة الإحالة، كما يفيده كلام القاموس، وأمّا جعلهما للطلب فبعيد.

(2) (ضدّ هذه الصفات) المراد بالضدّ هنا: الضدّ اللغويّ، وهو كلّ مناف، وجوديًّا كالحدوث، أو عدميًّا كالعدم؛ وذلك لأنّ هذه الصفات:

ـ منها ما هو من تقابل الضدّيْن بالمعنى المنطقيّ، كالتقابل بين صفات المعاني ومنافياتها.

ـ ومنها ما هو من تقابل الشيء والأخصّ من نقيضه، كالتقابل بين الوجود والعدم، فإنّ نقيض الوجود لا وجود، وهو أعمّ من العدم، بناء على القول بالحال؛ لأنّ لا وجود صادق بالعدم وصادق بالثبوت وهو الحال التي هي واسطة بين الوجود والعدم، أمّا على القول بنفي الحال فالعدم مساوٍ لنقيض الوجود.

ـ ومنها ما هو من تقابل الشيء والمساوي لنقيضه، كالعدم والحدوث.

ـ ومنها ما هو من تقابل النقيضين، كالوحدانية ونفيها.

(3) أي لأنّه الوجود بعد العدم، والإله منزّه عن ذلك؛ ولهذا أبطل ألوهيّة الأصنام بمخلوقيّتها فقال تعالى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [الأعراف: 191]

(4) قوله: (والفناء ضدّ البقاء) أي ولذا جعل تعالى فناء كلّ ما سواه وبقاءَه وحده دليل نفي الألوهيّة عن كلّ ما سواه وانفراده بها في قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: 88]، فإنّ الجملة سيقت دليلًا على الوحدانيّة التي تضمّنها قوله: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [القصص: 88]، والدليل مشتمل على المدلول، فصارت جملة {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} في معنى بدل الاشتمال ممّا قبلها، أعني جملة {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} فبينهما كمال الاتّصال.

والافتقار ضدّ الغنى(1)، و الـممـاثلة للحوادث ضدّ مـخالفته لـها(2).

(1) (والافتقار عُدَّهْ) أي فـي الـمستحيلات، فيستحيل افتقاره إلـى مـحلّ أو مـخصّص أو طاعة أو شيء من الأشياء -كمـا مرّ-، ومن ذلك: الوسائط والأسباب لا يفتقر إلـى شيء منها، وما وسط فيـه واسـطة أو سـبّبه عـن سـبب فباختيـاره حسبمـا اقتضته حكمته، ففائدة بعثة الرسل إنّمـا هي للخلق، وقوله تعالـى لـمريم علـى لسـان عيسـى عليـه السـلام: {وَهُـزِّي إِلَيْـكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا} [مريم: 25] هو مقتضى حكمته، ولو شاء لأحضره لـها بلا هزّ ولا نخلة، ولقد أحسـن القائل:

أَلَـــــمْ تَـــــرَ أَنَّ اللهَ أَوْحَـــــى لِـمَرْيَـــــمَ ... وَهُـــزِّي إِلَيْـــكِ النَّخْـــلَ تُسَـــاقَطِ الرُّطَـــبْ
وَلَـــوْ شَـــاءَ أَنْ تَـــجْنِيَهُ مِـــنْ غَيْـــرِ هَزِّهَـــا ... جَنَتْـــــهُ وَلَكِـــــنْ كُـــــلُّ شَيْءٍ لَـــــهُ سَـــــبَبْ

ومـمّـا يبيّن لك أنّه تعالـى غنيّ عن الأسباب العاديّة: ما تراه من ارتفاع السمـاء مع طولـها وعرضها بغير عمد، وإمساك الطير فـي الـهواء بغير مستند، وإلـجام البحر عن الفيضان علـى الأرض بغير حاجز، وتكوين آدم بغير أب ولا أمّ، وإخراج الـمـاء من صمّ الـحجارة على مرّ السنين من غير مادّة، وأيّ مناسبة بين الـمـاء والـحجر؟ ! فسبحان من هو علـى كلّ شيء قدير.

(2) (وأن يمـاثَل) الأحسن قراءته بفتح المثلثة بالبنـاء للمفعـول؛ لأن المماثلـة تنسـب للأدنـى كـما تقـدم، أي يشـابهه شيء مـن الحوادث، وقد تقدم كثير من وجوه المماثلة المستحيلة، ومنها: كونه متحيـزا في جهـة، قيـل لعـلي: أيـن كـان ربنـا قبـل أن يخلـق السموات والأرض؟ فقال: كان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، وينسب له

أَنْـــــتَ الَّــــذِي حُـــــزْتَ كُـــــلَّ أَيْـــــنِ ... فَحَيْـــــــثُ لَا أَنْـــــــتَ ثَـــــــمَّ أَنْـــــــتَ
وَلَيْــــــسَ لِلْأَيْـــــنِ مِنْـــــكَ أَيْـــــنُ ... فَـــــيَعْلَمُ الْأَيْـــــنُ كَيْـــــفَ أَنْـــــتَ

وأما قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16] فالمراد والله أعلم: سلطانه وأمره.

ولا يكفّر معتقد الجهة على الأصح، قاله عزّ الدين، وزاد ابن أبي جمرة: إذا لم يقبل عقله غيرها، واستدلّ بحديث السـوداء، وهـي أمة قال سيّدها: يا رسول الله، إنّ عليّ رقبةً، أفأعتق هذه؟ فقال لها الـمصطفى: أين الله؟ قالت: فـي السمـاء، قـال: مـن أنـا؟ قالت: رسول الله، قال: أعتقها؛ فإنّها مؤمنة.